المحاضرة السابعة: الأنواع الأدبية التاريخية

مقدمة

يُعدّ مفهوم النوع الأدبي من أكثر المفاهيم مركزية في النقد الأدبي، لأنه يمثّل الإطار الذي يُنظَّم داخله النتاج الأدبي، ويُصنَّف وفق خصائص فنية ومضمونية ولغوية مشتركة. وقد اتخذت الأنواع الأدبية عبر التاريخ أشكالًا متعددة ومتطورة بتطور الفكر البشري ووسائل التعبير، حتى أصبحت اليوم نظامًا مرنًا يعكس تعدد الأشكال الخطابية وتداخلها. ومن بين التصنيفات الكبرى التي تناولها النقاد، نجد الأنواع الأدبية التاريخية، وهي التي تُدرَس من زاوية تطورها عبر العصور، أو التي ترتبط بطبيعتها بمضمونٍ تاريخي أو بالسرد التاريخي نفسه.

أولًا: تعريف الأنواع الأدبية التاريخية

يُقصد بالأنواع الأدبية التاريخية تلك الأنواع التي تتعامل مع المادة التاريخية موضوعًا أو سياقًا أو أسلوبًا، أي التي تنطلق من أحداث وشخصيات حقيقية أو مستمدة من التاريخ، وتعيد تشكيلها فنيًا في إطار أدبي، وقد تتجلى في الشعر، أو السرد، أو المسرح، أو غيرها من الفنون الكتابية

كما يُطلق هذا المصطلح أيضًا على الأنواع التي تشكّلت تاريخيًا عبر العصور — أي أن "التاريخية" هنا قد تُفهم بطريقتين:

1. من حيث الموضوع (أي ارتباط النص بالتاريخ
2. ومن حيث التطور الزمني (أي دراسة نشأة الأنواع وتحوّلاتها عبر التاريخ الأدبي)

ثانيًا: الجذور الأولى للأنواع التاريخية

1. في الأدب القديم

في الحضارات القديمة — كاليونانية والرومانية والمصرية — كان التاريخ والشعر متداخلين. فالمؤرخون الأوائل مثل "هيرودوت" و"ثيوسيديدس" كانوا يسردون الوقائع بروحٍ أدبية، كما كان الشعراء يستلهمون الأحداث الكبرى في قصائدهم (مثل الإلياذة والأوديسة عند هوميروس، اللتين تمزجان بين الأسطورة والتاريخ)، أما في الأدب العربي القديم، تجلت النزعة التاريخية في:

- القصيدة الحماسية والفخرية التي خلدت الوقائع والبطولات.
- الخبر والسير مثل سيرة عنترة وسيرة بني هلال، التي تمزج بين الحقيقة التاريخية والتخييل الشعبي.

ثالثًا: تطور الأنواع الأدبية التاريخية عبر العصور

1. العصر الكلاسيكي

تحددت الأنواع في هذا العصر بثلاثة أنماط أساسية (بحسب أرسطو):

- الملحمة :(Epic) تجمع بين السرد والتاريخ والبطولة.

- المأساة :(Tragedy) مستلهمة من التاريخ والأسطورة معًا.
- الملهاة :(Comedy) تواكب الحياة الاجتماعية والسياسية.

.2العصور الوسطى

في أوروبا، ازدهرت السير البطولية (Chansons de geste) مثل أنشودة رولان، وهي نصوص تجمع بين التاريخ القومي والتعبير الشعري، وفي الأدب العربي، ظهرت القصص التاريخية والدينية مثل قصص الأنبياء والفتوحات الإسلامية، التي حملت نزعة توثيقية تعليمية.

.3عصر النهضة

شهد هذا العصر ظهور المسرحية التاريخية على يد شكسبير، الذي استلهم التاريخ الإنجليزي في مسرحياته (ريتشارد الثالث، هنري الرابع).وفي المقابل، تطور فن السيرة الذاتية كوثيقة أدبية تؤرخ لحياة الفرد في علاقته بعصره.

.4القرن التاسع عشر

بلغت الأنواع الأدبية التاريخية ذروتها مع الرواية التاريخية، خاصة مع الكاتب الفرنسي فيكتور هوغو (أحدب نوتردام) والاسكتلندي والتر سكوت (إيفانهو.)، هذه الروايات مزجت بين السرد الفني والوقائع التاريخية، وجعلت التاريخ مادة فنية تُعيد قراءة الماضي بروح معاصرة. أما في الأدب العربي الحديث، ظهر هذا الاتجاه عند:

- جرجي زيدان في رواياته التاريخية الإسلامية.
- محمد فريد أبو حديد في رواية الوعاء المرمري.
- نجيب محفوظ في عبث الأقدار ورادوبيس، حيث استخدم التاريخ المصري القديم خلفية فلسفية.

.5القرن العشرون وما بعده

تراجعت الرؤية التوثيقية البسيطة لصالح الرؤية التأويلية للتاريخ. فلم يعد الكاتب يعيد تصوير الماضي فحسب، بل يُعيد تأويله في ضوء الحاضر.، وظهرت بذلك:

- الرواية الميتاتاريخية :(Metahistorical Novel) التي تشكك في طبيعة الحقيقة التاريخية.
- المسرح التسجيلي :(Documentary Theatre) الذي يمزج الوثائق التاريخية بالأداء الفني.
- الشعر التاريخي الرمزي: كما عند أدونيس ومحمود درويش، حيث يتحول التاريخ إلى رمز للهوية والمصير.

رابعًا: أبرز الأنواع الأدبية التاريخية

.1الرواية التاريخية

- تقوم على واقعة أو فترة تاريخية محددة.
- تمزج بين الشخصيات الحقيقية والمتخيلة.

- هدفها ليس إعادة سرد التاريخ، بل تأمله وإعادة صياغته فنيًا.

2.المسرحية التاريخية

- تستلهم أحداثًا أو شخصيات من التاريخ.
- تقدم رؤية فكرية أو سياسية من خلال الماضي.
- تتيح إسقاطات معاصرة (كما فعل برتولت بريشت في حياة غاليليو.(

3.القصيدة التاريخية:

- شعر يسجل حدثًا أو موقفًا وطنيًا أو قوميًّا.
- تتخذ التاريخ مادة رمزية لبناء رؤية شعرية (مثل قصيدة الكنعانيات لدرويش.(

4.السيرة الذاتية والتاريخية:

- توثّق التجربة الفردية أو الجماعية في ضوء التحولات التاريخية.
- تمزج بين السرد الواقعي والبعد التأملي.

خامسًا: القيمة الفكرية والجمالية للأنواع التاريخية

1.الوظيفة التوثيقية: حفظ الذاكرة الجماعية والتاريخ الإنساني.

2.الوظيفة الجمالية: تحويل الحدث الواقعي إلى تجربة فنية رمزية.

3.الوظيفة النقدية: مساءلة التاريخ وكشف زيف الرواية الرسمية.

4.الوظيفة الهوياتية: تعزيز الشعور بالانتماء من خلال الوعي بالماضي.

سادسًا: بين التاريخي والتخييلي

تثير الأنواع الأدبية التاريخية سؤالًا جوهريًا:إلى أي مدى يمكن للأدب أن يكون تاريخًا؟وإلى أي مدى يمكن للتاريخ أن يكون أدبًا؟ فالأدب التاريخي لا يقدّم "حقيقة" بل "رؤية"، ولا يوثّق الحدث كما وقع، بل كما يمكن أن يُتخيَّل في ضوء الوعي الجمعي والجمالي، وهذا ما يجعل الأدب التاريخي مساحةً للتأمل النقدي في علاقة الإنسان بزمانه وماضيه.

الخاتمة:

إنّ الأنواع الأدبية التاريخية ليست مجرد تسجيل للماضي، بل هي طريقة فنية للتفكير في الزمن، تعيد تشكيل الذاكرة، وتطرح أسئلة عن الهوية والمصير.فمن الملحمة القديمة إلى الرواية الميتاتاريخية المعاصرة، ظلّ الأدب يبحث في التاريخ عن ذاته، ويجعل من الماضي مرآة للحاضر والمستقبل.